توبوا فقد اقترب ملكوت السموات

الأب أنطوان ملكي

أوّل عظةٍ قالها السيّد للشعب بعد معموديّته كانت: "توبوا لأنّه قد اقترب ملكوت السموات" (متّى ٤:١٧). دعاهم إلى التوبة لأنّها أمرٌ أساسيٌّ في حياتنا. يقول إشعياء النبيّ: "الشعب السالك في الظلمة قد أبصر نورًا عظيمًا"، فهل من ارتباطٍ بين التوبة والنور؟ طبعًا، لأنّ النور الحقيقيّ هو الذي يأتي من المسيح الذي لا نعرفه من دون توبة.

التوبة، كما يُعرّفها الآباء القدّيسون، هي "تغيير الذهن أو العقل". التوبة ليست الندامة فحسب، بل هي تغيير الذهن وطريقة التفكير، والتوقّف عن التفكير في الخطيئة، والبدء بالتفكير في الأمور الصالحة. فهكذا يكون تغيير الذهن من التفكير بالشرّ للتفكير بالأعمال الصالحة. هذا هو الشكل الحقيقيّ للتوبة. إذًا، التوبة ليست حالةً نفسيّةً أو عصبيّة، ليست أن يتوتّر الإنسان ويصرخ "قد تبتُّ، قد تبتُّ"، بل هي بناء الذات، أي أن يعود الإنسان لذاته ويبنيها بناءً صالحًا، لا أن يبكي ويعوّل أو يعاتب نفسه. هي تغيير الذهن لإصلاح الحياة، لإصلاح الذات والتحوّل إلى إنسانٍ جديد.

التائب هو الذي لا ينظر إلى الوراء، بل إلى فوق، إلى الله المحبّ البشر. التوبة هي عودةٌ إلى النور، هي عبورٌ من الظلمة إلى النور. إذا كان الإنسان غارقًا في الظلمة، فسيحتاج إلى نورٍ كي يفضح نفسه ويكشفها فيراها على حقيقتها: يرى أهواءها، ويرى خطاياها. لكن على أيّ نورٍ نتكلّم؟ على نور المسيح الذي أخذه الجميع في يوم المعموديّة. ولكن أما زال مشتعلاً فينا؟ أما زال ينير الظلمة التي دخلنا فيها بسبب خطايانا؟ كلّ إنسانٍ مُعمَّدٍ لديه نور المسيح، بخاصّةٍ مَن يشترك في جسد المسيح ودمه. أمّا الذي لا يشترك فيهما، فلا يغذّي هذا النور بل يدعه ينطفئ. الإنسان التائب هو الذي يهيّئ نفسه لاتّقاد النور في داخله.

أن يغيّر الإنسان ذهنه عن الخطيئة، مُصلحًا ذاته، موجّهًا عقله نحو السماء، نحو الله، هو هدف التوبة. عندها يكتشف أنّه ابنٌ لله، ابنٌ للنور، والمسيح يدعوه ليكون ابنًا للنور. من دون التوبة، لن يشتعل النور الحقيقيّ الموجود في داخله منذ يوم المعموديّة. فهذا النور يمكن أن يكون خامدًا عند أيّ مسيحيّ، ولكنّه سيكون متّقدًا عند التائب، فيقدّسه. نور الربّ هو الذي يُطهّر.

ما علاقة النور بالتوبة؟ كي نتوب يجب أن يدخل فينا النور، وما دمنا معتمدين فنحن نملك هذا النور. وما نتائج التوبة؟ من نتائج التوبة أن يسكن فينا نور المسيح، وينضح منّا هذا النور. هذه هي علاقة النور بالتوبة، علاقة متبادلة، أي إن تاب الإنسان سيحصل على النور الحقيقيّ؛ ومن جهةٍ أخرى، من دون النور لن تُكشف خطاياه، ولن يستطيع أن يتوب توبةً حقيقيّة، مُغيّرًا ذهنه، ومُصلحًا ذاته ومُطهّرًا ايّاها، وناظرًا إلى فوق، إلى العُلى، إلى الملكوت السماويّ.

الإنسان التائب هو الإنسان الذي يمتلك حياةً جديدةً ملؤها السلام والمحبّة والتواضع. وفي النهاية يكون الملء من روح الله. هذا هو هدف الإنسان المسيحيّ الحقيقيّ الذي يسعى إلى ملكوت السموات. إلّا أنّ التوبة ليست عملاً مؤقّتًا، بل هي عملٌ مستمرٌّ حتّى نهاية العمر. لا يمكننا القول إنّنا إذا تبنا اليوم فهذا يعني أنّنا قد خلصنا، طبعاً لا. إن لم نكن تائبين العمر كلّه فلن نخلص، ولن نحصل على النور الحقيقيّ ولا على ملكوت السموات. يدعونا المسيح إلى أن نكون من أهل التوبة لأنّنا سنخلص بها. "توبوا فقد اقترب ملكوت السموات"، أي لا تنوحوا ولا تبكوا، بل غيّروا أنفسكم وطريقة تفكيركم وحياتكم. المُعتاد على عدم الصوم فلْيَصُم، والمعتاد على الكفر فليكفّ عنه، والمعتاد على الكذب فليتمسّك بالصدق. عندها تكون التوبة قد بدأت، ويتّسع القلب لسُكنى المسيح، ويصير مُفيضًا للنور، فيتمّ الخلاص.